الإمام يوسف القرضاوي

الإسلام والحضارة الغربية

مكتبة وهبة
٤١ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

محاضرات الإمام يوسف القرضاوي
الإسلام والحضار الغربية
الإمام يوسف القرضاوي
الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٤٠ صفحة ١٤ × ٢٠ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٢/٨٩٩١
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-225-343-7

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر) . غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله بأي وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على أي نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر أو المؤلف .

All rights reserved to The Auther And Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher And Auther.

دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد
إدارة الشئون الفنية

القرضاوي ، يوسف .
الإسلام والحضار الغربية / يوسف القرضاوي .ـ
القاهرة : مكتبة وهبة ، ٢٠١٢
٤٠ ص ؛ ١٤ سم
تدمك ٧ ٣٤٢ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الحضارة الاسلامية .
٢ - الاسلام والحضارة .
أ - العنوان .

٩٥٢

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٢٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والحضارة الغربية[1]

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومَن اتَّبع هداه .

(وبعد)

---

(١) أُلقيت هذه المحاضرة ضمن الموسم الثقافي الذي تقيمه جامعة الخليج العربي في البحرين ، يوم الثلاثاء ٢ ديسمبر ١٩٨٦م ، وقد قدم شيخنا المفكر البحريني والكاتب الخليجي المعروف الأستاذ الدكتور محمد جابر الأنصاري ، وقال في تقديمه : إن محاضرنا غني عن التعريف ، وله سجل حافل بالنشاطات الفكرية ، وخدمة قضايا المسلمين ، وحل مشاكلهم ، وأصدر العديد من الكتب الإسلامية الهادفة ، منها كتابه المشهور (الحلال والحرام) ، و(فقه الزكاة) ، وكتب أخرى ، وله برنامج تلفزيوني أسبوعي يذاع من إذاعة قطر ، يتناول فيه اهتمامات قطاع كبير من المواطنين الخليجيين ، وقلما يوجد مسلم معاصر إلا والتقى بالأستاذ الدكتور القرضاوي ، قارئا لكتاب أو مقالة ، أو ملتقيا به في مؤتمر أو ندوة ، أو مستمعا إليه في محاضرة أو خطبة ، أو مستفيدا منه في فتوى أو توصية ، أو مشاهدا له في تلفاز ، أو منصتا إليه في إذاعة .

موضوعنا ـ أيها الإخوة ـ حول (الإسلام والحضارة الغربية) ، وإن شئتَ قلتَ : حول المسلمين والحضارة المعاصرة .

الحضارة المعاصرة حضارة غربية :

ونعني بالحضارة المعاصرة ، الحضارة الغربية التي تسود العالم في هذا العصر ، وإن كان يحلو لبعض الناس أن يصفها بالحضارة العالمية ، أو الكونية ! والواقع أنها حضارة غربية ، غربية الجذور والنشأة ، غربية الفلسفة والأفكار والتوجُّه ، وإن كانت عالمية من حيث إنها بسطت سلطانها على العالم ، وانتشرت في كلِّ مكان ، هي في الحقيقة ـ إن أردنا الإنصاف وردَّ الأمور إلى أصولها ونسبة كلِّ شيء إلى أهله ـ نسبه الصحيح ـ هي حضارة غربية .

لهذه الحضارة الغربية أصول ومكوِّنات أثَّرت فيها ، وجعلت لها شخصيَّتها المتميِّزة ، كان هناك حضارات سبقتها ، الحضارة اليونانية ، والحضارة الرومانية ، أبرزها الحضارة الإسلامية التي سبقت الحضارة الغربية الحالية ، سبقتها بعدَّة قرون ، وورثتها هذه الحضارة المعاصرة .

خصائص الحضارة الإسلامية :

حضارتنا الإسلامية كانت لها خصائص معيَّنة ، فهي حضارة جمعت بين الروحية والمادية ، بين الربانية والإنسانية ، بين الفردية والجماعية ، بين المثالية والواقعية ، بين الحرية والمسئولية ، بين

الواجبات والحقوق ، بين العالمية والمحلية . بين المتقابلات التي يظنُّ كثير من الناس أن التقاءها ضرب من المستحيل ، ولكن الحضارة الإسلامية وازنت بينها ، فوصلت الأرض بالسماء ، ووصلت الدنيا بالآخرة ، وربطت المخلوق بالخالق . هذه الحضارة المتميِّزة ، التي سادت العالم لعدَّة قرون هي حضارتنا .

كانت حضارتنا الإسلامية هي الحضارة الوحيدة في العالم ، كانت اللغة العربية هي لغة هذه الحضارة ، اللغة التي يحسب بعض الناس الآن أنها عاجزة أن تستوعب العلوم ، أو تكتب بها العلوم ، كانت هي لغة العلم في العالم كلِّه ، وكانت الجامعات الإسلامية هي المراكز التي يَفِد إليها الطلاب من أنحاء العالم ، والكتب الإسلامية العلمية هي مراجع الباحثين والدارسين في أنحاء العالم ، لو نظرنا إلى علم كالطب ، ماذا كان يعرف الناس من علم الطب ، وإلى أيِّ مراجع كانوا يرجعون ، إلى (القانون) لابن سينا ، أو (الكليات) لابن رشد ، أو (الحاوي) لأبي بكر الرازي ، أو (التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي ...إلخ ،

والأسماء العلمية الإسلامية كانت ألمع الأسماء في العالم ، ابن رشد ، وابن سينا ، والرازي ، وابن النفيس ، والخوارزمي . هذه الأسماء المعروفة في العالم هي الأسماء الإسلامية .

حضارة العلم والإيمان :

هذه الحضارة التي سادت العالم كان لها خصائصها التي ذكرناها ، لم يقُم فيها صراع بين العلم والإيمان ، ولا بين الإبداع المادي والسمو الأخلاقي ، لم يحدث فيها شيء من الصراع ، كان العلم فيها دينا ، والدين فيها علما ، بل كثير من العلماء بالمعنى الغربي الآن للعلم الذين يسمُّونهم العلماء ، يعني رجال (Since) ، الذين يقولون عليهم كان هؤلاء علماء دين ، يعني ثقافتهم الأساسية ثقافة دينية إسلامية .

الخوارزمي الذي أسَّس علم الجبر والمقابلة ، إنما أسَّس كتابه ليحلَّ به مشكلات في المواريث والوصايا ، والذي يقرأ رسالته يجد أنها أُنشئت أساسا لحلِّ بعض المشكلات الفقهية .

ابن رشد أكبر شارح لأرسطو في تلك العصور ، وصاحب (الكليات) في الطبِّ ، فقيه شرعي ، لقبه القاضي ابن رشد ، وجده الإمام ابن رشد ، ويلقب بالجد للتفرقه بينهما . وهو ـ أي ابن رشد الحفيد ـ صاحب الكتاب الشهير في الفقه المقارن ، كتاب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) .

ما كان في الحضارة الإسلامية هذا الصراع ، أو الازدواج ، أو الانفصام المشئوم الذي عُرف في الحضارة الغربية .

مدن أوربا لم تكن تعرف النظافة :

الحضارة الغربية ورثت الحضارة الإسلامية ، مسَّتها نفحة من الحضارة الإسلامية ، في الحقيقة أوربا كانت تعيش في ظلمات ولا تكاد ترى الضوء إلا من سَمِّ الخياط كما قال بعض المؤرخين ، ما كانوا يعرفون حتى النظافة ، في الوقت الذي كان في قرطبة نحو (٧٠٠) ستمائة حمام[١].

كانت مدن أوربا لا تعرف النظافة ، وكانت شوارعها مليئة بالأوحال ، وكان الرهبان النصارى يتقرَّبون إلى الله بالقذارة ، ويرون أن الإنسان كلما عُني بنظافة جسمه كلما قرب من الشيطان ، وبعد من الرحمن . حتى ذكر الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوي في كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ، نقلا عن بعض الكتب الأوربية : أن أحد الرهبان الأوربيين من النصارى في العصور الوسطى كان يقول : لقد عاش الراهب الفلاني نحو خمسين سنة ولم يقترف إثم غسل الرجلين ! لم يقترف هذا الإثم .

وينقل عن بعضهم قوله : يرحم الله القديس فلانا ، لقد عاش ما عاش ولم يبلَّ رجليه بالماء ، ولكننا واأسفاه أصبحنا في

---

(١) نفح الطيب للتلمساني (٥٤٠/١) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، نشر دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ .

زمن يدخل فيه الناس الحمامات[1] . وهذا الأسف حدث لماذا؟ لأنهم اقتبسوا ذلك من المسلمين ، وقلّدوا المسلمين .

مصدر الأمراض عند الأوربيين :

حينئذ كانت أوربا المتخلفة هذه ترى أن الأمراض من الشيطان ، وترى أن هذا بسبب المعاصي ، ولا ينبغي للإنسان أن يعالج نفسه ، في الوقت الذي كان فيه الإسلام يقول : « تداوَوا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء »[2]. ولما سئل النبي ﷺ : أرأيت رقى نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتَّقيها ، هل تردُّ من قدر الله شيئا؟ قال : « هي من قدر الله »[3]. إلى آخر ما ورد .

كانت أوربا في هذه الحال ، فلما التقت أوربا بالعالم الإسلامي عن طريق قنوات تاريخية معروفة في الأندلس ، وفي صقلية ، وفي الحروب الصليبية نفسها : نالهم قبس من نور الإسلام في

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة أبي الحسن الندوي صـ١٥١ .

(٢) رواه أحمد (١٨٤٥٤) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح ، وأبو داود (٣٨٥٥) ، والترمذي (٢٠٣٨) وقال : حسن صحيح ، كلاهما في الطب ، عن أسامة بن شريك .

(٣) رواه أحمد (١٥٤٧٣) وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ، والترمذي (٢٠٦٥) ، وابن ماجه (٣٤٣٧) ، كلاهما في الطب ، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٧٤٩) ، عن أبي خزامة عن أبيه .

الشرق الإسلامي ، فبدأ القوم يستفيقون ويستيقظون ، وبدأنا نحن المسلمين نتخلَّف وننام ، هم بدأوا ينهضون ، وبدأنا نحن في العدِّ التنازلي ، كما يقولون ، وحدث ما حدث .

موقف الكنيسة من التفكير العلمي :

طبعا وقف الدين المسيحي ضدَّ التفكير العلمي ، والدين هنا نعني به دين الطبقة الغربية ، وقف الدين ضدَّ التفكير العلمي ، وضدَّ طموح العلماء ، وضدَّ اختراع المخترعين ، وقفت الكنيسة بما احتضنته من قضايا علمية أضفت عليها نوعا من القداسة ، بعض النظريات التي ورثتها من الإغريق قديما ، واعتقدت أنها المعصومة لا خطأ فيها ، بدأت تدافع عنها . كلُّ مَن يخالف هذه النظريات في الفلك القديم ، أو الجغرافيا القديمة ، أو النظرة إلى الكون وإلى الطبيعة ، يُعَاقَب ويُعَذَّب ، بل يُقْتَل في كثير من الأحيان . فحدث ما حدث من صدام مروِّع ، وما عُرف باسم (محاكم التفتيش) ، وما ارتُكِبَ فيها من مجازر بشرية تقشعر لها الأبدان ، وتشيب لهولها الولدان ، حُرقت الجثث ، بل حُرقت بعد موت أصحابها ، وحُرقت الكتب ، تاريخ تنتفخ به بطون الكتب ، وهو معروف ، قد حكى كثيرا منه الإمام محمد عبده في كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية)[1] .

---

(١) الإسلام والنصرانية صـ ٤٢-٤٨ . نشر دار الحداثة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م .

المهم كانت النتيجة أنه بعد هذا الصراع الدموي انتصر العلم على الكنيسة ، وظنَّ الناس أن هذا كان انتصار العلم على الدين ، وانتصار العقل على الوعي ، وانتصار الفكر على العقيدة ، وهذا كان له أثره في تفكير الناس بعد ذلك ، كانت الصيحة التي نادى بها الناس الثائرون على الكنيسة : اشنقوا رأس آخر ملك بأمعاء آخر قسيس .

ثار الناس على الكنيسة ، وعلى كلِّ ما تمثِّله الكنيسة ؛ لأنها وقفت مع الملوك ضدَّ الشعوب ، مع الإقطاعيين ضدَّ الفلاحين ، مع أرباب العمل ضدَّ العمال ، مع الخرافة ضدَّ الفكر ، ومع الجهالة ضدَّ العلم . وكانت النتيجة أن الدين أصبح في جانب ، والعلم في جانب ، وهذا جعل الحضارة الغربية من أول الأمر تتَّخذ موقفا من الدين ، وتعتقد أن الدين معادٍ للعلم ، وأنه ينبغي أن ينفصل كلٌّ منهما عن الآخر ، هذه كانت مكونا أساسيا من مكوِّنات الحضارة الغربية : أنها نشأت منذ نشأت منفصلة عن الدين معزولة عنه .

الجانب المادي في الحضارة الغربية :

ثم من ناحية أخرى ، الحضارة الغربية في جذورها متأثِّرة بالفلسفة الإغريقية اليونانية ، وبالحضارة الرومانية ، والحضارة

اليونانية والحضارة الرومانية كلتاهما مادية ، تُعنَى بالحسيات كثيرا ، ولا تحفل بالرُّوحانيات ، وتغلب عليها النزعة الوثنية ، والوثنية هي ضرب من تجسيد الحسِّ ، لأن الوثنية عبارة عن ماذا؟ أنها لا تؤمن بإله مجرَّد ، إله غير مُحَسٍّ وغير مُجَسَّد ، الوثنية هذه تُجسِّد الإله أمام الناس ، ولذلك انتشر عند اليونان وعند الرومان آلهة شتَّى ، إله الحب ، وإله الجمال ، وإله الطبيعة . . كلُّها مُجسَّدات ، فعملية التجسيد والحسِّ في الجانب المادي هذا كان في طبيعة الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية ، وقد ورثتها الحضارة الغربية في هذا الجانب .

هناك قدر ضئيل للعقيدة المسيحية في الحضارة الغربية ، ولكنه ليس قدرا مؤثِّرا ، لم تكن المسيحية العنصر المؤثِّر في الحضارة الغربية ، هناك أفراد كانوا يؤمنون بالمسيحية ، ولكن كما رأينا أن النهضة لم تقُم إلا بعد فصل المسيحية بكنيستها وقُسُسها ورُهبانها عن النهضة الجديدة ، وفي الحضارة الجديدة إذا كان هناك أفراد ممن يؤمنون بالمسيحية فهم أفراد معدودون ، لا يكوِّنون التيار المؤثِّر في هذه الحضارة .

ولذلك من الخطأ اعتبار الحضارة الغربية حضارة مسيحية ، وقد قلتُ لبعض الناس مرَّة : إن هذه ليست حضارة المسيح عيسى

ابن مريم ، إذا صحَّ أن تنسب إلى المسيح ، فقولوا : إنها حضارة المسيح الدجال . وذلك أن المسيح الدجال كما تصفه الأحاديث بأنه أعور[1] ، وهذه حضارة عوراء ، لأنها تنظر إلى الكون والإنسان والحياة بعين واحدة ، تنظر إلى الجانب الماديِّ فقط وتنسى الجانب الرُّوحي ، تنظر إلى الجانب الدنيوي وتنسى الجانب الأخروي ، فهي حضارة عوراء عرجاء .

الحضارة الغربية تقوم على الصراع :

الحضارة الغربية من فلسفتها أيضا أنها حضارة صراع ، تقوم على الصراع ، الصراع فيها عنصر أساسيٌّ ، مكوِّن من مكوِّناتها الفكرية والفلسفية ، صراع الإنسان مع الإنسان ، صراع الأُمم والقوميات ، وصراع الطبقات ، وصراع الأفراد ، بل حتى صراع الإنسان مع نفسه ؛ لأن المسيحية نفسها أورثتهم الصراع مع الفطرة ، لأن الأخلاق المسيحية أخلاق لا تلائم الفطرة ، لأن التعاليم تقول : أحبوا أعداءكم ، وأحسنوا إلى مبغضيكم ، وباركوا

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذره قومه ، لقد أنذر نوح قومه ، ولكني أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور » متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٧) ، ومسلم في الإيمان (١٦٩) ، عن ابن عمر .

لاعنيكم . . . مَن ضربك على خدِّك الأيمن فأدِر له خدَّك الأيسر[1] . وهذا شيء لا تحتمله الفطرة العادية .

الإنسان يمكن أن يعدل مع عدوه ، وهذا ما أمر به القرآن : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ (المائدة:٢) ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(المائدة:٨). هذه التعاليم جاءت بأشياء فوق الطاقة البشرية ، فلذلك هناك صراع موجود في أعماق النفسية الغربية بين الفطرة البشرية والتعاليم الدينية .

صراع مع الطبيعة ، ولذلك يستخدم الغربيون كلمة : (قهر الطبيعة) . يقولون : قهرنا الطبيعة . أعجبني هنا منذ أيام كان الدكتور مصطفى كمال طلبة ، في محاضرة له تحدَّث عن البيئة والصحراء ومقاومة التصحُّر ، وكان من كلماته أنه لا ينبغي أن نستعمل كلمة : (غزو الصحراء) . فالإنسان لا يغزو الطبيعة ، ولا ينتصر على الطبيعة ، إنما ينبغي أن يتعايش معها . وهذا في الواقع يتَّفق مع التعابير الإسلامية .

---

(١) لوقا (٦/ ٢٨ - ٢٩) .

صراع الإنسان مع الطبيعة :

الطبيعة مُسخَّرة لنا ، ليست عدوًا حتى نقهره ، التعبير الغربي يعتبر الطبيعة كأنها عدو للإنسان ، وينبغي أن يتعامل معها معاملة العدو لعدوه ، كأنه في حرب ، في معركة مع الطبيعة حتى يقهرها ، الطبيعة هي مخلوق ودود ، مسخَّر للإنسان ، ولذلك النبي ﷺ في تعبيراته الرقيقة ، حينما قال عن جبل أُحد ، وقد قدم من إحدى الغزوات ، فلاح له أُحد من بعيد فقال : « هذا جبل يحبُّنا ونحبُّه »[1] .

انظروا إلى « أُحُد جبل يحبُّنا ونحبُّه » ، وكان يمكن أن يقول : هذا الجبل مصدر تشاؤم لنا ، فقد وقعت بجواره غزوة انهزم فيها المسلمون وخسروا فيها - إذا استعملنا تعبير الناس الحربيين - خسروا فيها سبعين من خيار الصحابة ، من أمثال حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وغيرهما من الأبطال .

وكلمة (خسروا) . كلمة في الحسِّ الإسلامي غير مقبولة ، إن الله تعالى قال : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ (آل عمران: ١٤٠) ، فلم يتطيَّر النبي ﷺ من أُحُد ، ولكن قال : « أُحُد جبل يحبُّنا ونحبُّه » .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٩) ، ومسلم في الحج (١٣٦٥) ، عن أنس .

الصراع في الفلسفة الغربية صراع حتى مع الطبيعة ، بل صراع مع الآلهة كما يقولون ، الإنسان في صراع مع الآلهة ، والقصص التي يحكونها عن اليونان وعن الرومان وآدابهم القديمة ، كلها عملية صراع مع الآلهة ، والآلهة في صراع بعضهم مع بعض ، والإنسان في صراع مع الآلهة .

صراع الإنسان مع الإله :

ليس الأمر كما هو عندنا نحن المسلمين ، هذا الإله علاقتنا به أنه هو الربُّ ، والربُّ كلمة ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ تعني معنى التربية والرعاية والإمداد والترقية في مدارج الكمال ، وأول آيات نزلت في القرآن : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١-٥) ، هذه علاقة الله بالإنسان ، علاقة الربِّ الخالق ، الربِّ الأكرم ، والربِّ المعلِّم . لكن في الحضارة الغربية عنصر الصراع عنصر أساسي .

الحضارة الغربية في الحقيقة لها مكوِّنات فلسفية ، من ضمن مكوناتها الفلسفية : النظرية التي تسري في أعماقها سريان الدم في العروق ، نظرية النشوء والارتقاء .

ومن ذلك أيضا : العنصرية ، الاستعلاء العنصري ، فالغربيون منذ عهد الرومان ينظرون إلى العالم كلِّه على أنه برابرة ، كلُّ من

عداهم برابرة ، وهم وحدهم المتمدِّنون والمتحضِّرون ، العلو الجنسي أو العنصري أمر مغروس في أعماقهم ، وهو ما رأيناه أخيرا عند هتلر والجماعة الذين ينادون بسيادة الجنس الآري ، وأن هناك أناسا خُلقوا ليَحكُموا ، وأناسا خُلقوا ليُحكَموا ، وأن هناك سادة وعبيدًا ، وأنهم هم في مرتبة السادة ، وما عداهم في مرتبة العبيد ، هذا أمر موجود عندهم ، وبعضهم جعل له نظريات ، (نظرية تفاضل الأجناس) ، أن جنسا أفضل من جنس .

على خلاف ما هو عندنا أن الناس بنو آدم ، وآدم من تراب . إن في أعماق الحضارة الإسلامية أن الناس كلّهم سواء ، أن الربَّ واحد ، وأن الأب واحد ، كما قال النبي ﷺ في جموع الناس في حجَّة الوداع : « يا أيُّها الناس ، إن ربَّكم واحد ، وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣) »[1] .

جوانب القوة في الحضارة الغربية :

الحضارة الغربية هذه هي مكوناتها الأساسية ، ولكن ليس معنى هذا أن الحضارة الغربية ليس فيها أي عنصر إيجابي ،

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ .

ولا أي عنصر خير ، ولا أي عنصر صواب ، إذا قلنا هذا فلن نكون منصفين ، وإلا ما أثمرت هذه الثمرات ، وما سادت العالم عدَّة قرون ، ويستحيل في سُنن الله أن تكون حضارة كلها شرٌّ وتسود العالم ، لا بدّ أن يكون فيها جوانب خير ، وجوانب قوَّة جعلتها تستطيع أن تسود .

١ - احترام العقل والعلم :

من ذلك تكريمها للعقل ، اهتمَّت بالعقل ، لما وقف الدين في سبيلها اهتمَّت بالعقل وتركت الدين ؛ لأن أيَّ دين هذا الذي يعارض العقل . اهتمامها بالجانب العقلي والفكري ، والذي أنتج العلم فيما بعد ، العلم الذي ينسب الآن إلى العلم الغربي ، مع أنه في الحقيقة ـ إذا أردنا الإنصاف ـ هو في أصوله علم إسلامي ؛ لأن اليونانيين الذين يزعمون أن الغربيين أخذوا عنهم كانوا نظريِّين ، كانوا نظريِّين تجريديِّين ، إنما الذين كانوا يجرِّبون بالفعل ويلاحظون ، هم المسلمون .

شهد بذلك كلُّ مَن أرَّخ للحضارة الإسلامية من الغربيين أنفسهم ، كلُّ هؤلاء ذكروا أن العرب المسلمين هم الذين أسَّسوا المنهج التجريبي ، وأن (فرنسيس بيكون) الذي يسمُّونه (أبو الفلسفة التجريبية) ومن قبله (روجر بيكون) ، هؤلاء أخذوا منهجهم من الحضارة الإسلامية ، فالمنهج الغربي العلمي

التجريبي القائم على الملاحظة ، وعلى التجريب الحسِّي ، هـو في الحقيقة منهج إسلامي ، ولكنا تركناه نحن وأخـذوه هـم ، فأصبح يُنسب إليهم .

فاحترام العقل ، واحترام العلم ، وما نتج عن هذا العلم من استخدامات تطبيقية ، هي التي نسمِّيها (التكنولوجيا) أو (التقنية) ، من الآلات والوسائل التي وضعها الغرب في شتَّى جوانب الحياة البشرية ، نتيجة هذا العلم . هذا طبعا كان من الإيجابيات التي أنتجتها الحضارة الغربية .

٢- احترام العمل :

والعمل ، واحترام العمل ، والعمل المتواصل ، هذا من إيجابيات الحضارة الغربية ، كلُّ إنسان لا بدَّ أن يعمل ، وأن يبذل جهده ، ولا مكان لقاعد ، ولا لمتعطِّل متبطِّل .

ولا بد للناس أن يعملوا ليأكلوا ويعمروا الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ (الملك:١٥) .

هذا من إيجابيات الحضارة الغربية ، يجب أن نعترف بهذا .

٣- احترام إنسانية الإنسان :

أيضا من إيجابيات الحضارة الغربية : احترام إنسانية الإنسان ، وكرامة الإنسان ، وخاصَّة داخل البلاد الغربية ، هم في بلادهم

يحترمون إنسانية الإنسان ، وكرامته ، وحريته ، صحيح أنهم إذا استعمروا وطنا آخر تعاملوا مع الناس بأخلاق أخرى ، وبمبادئ أخرى ، فهناك أخلاقيات داخل أوطانهم ، وأخلاقيات خارج أوطانهم ، فهم في داخل أوطانهم يحترمون إنسانية الإنسان ، وخارج أوطانهم لهم مواقف أخرى .

٤- تنظيم أمور الحكم :

هناك أيضا من الأشياء الإيجابية التي وصل إليها الغربيون : أنهم وصلوا إلى ضمانات وقواعد استطاعوا بها أن ينظموا أمور الحكم ، وأن يوقفوا طغاة الحكام عند حدودهم ، بعد أن جرَّبوا ما جرَّبوا قبل ذلك من الطغاة والأباطرة ، اتَّجهوا إلى الديمقراطية التي وضعت أمامهم ضمانات يعرفون بها كيف يقيِّدون الحكَّام ، وكيف يصبح الحاكم مسئولا أمام شعبه ، وكيف يمكن للشعب أن ينتخب ممثِّلين عنه . لا شكَّ أن هذا كلَّه من الأشياء الإيجابية النافعة في الحضارة الغربية .

الحضارة الغربية لها إيجابياتها ، ولا شكَّ أن هذه الإيجابيات جعلت هذه الحضارة تصل إلى ما وصلت إليه في عصرنا ، استطاعت أن تصنع ما صنعت ، أن تطير في الهواء كالطير ، وأن تغوص في البحر كالحوت ، ووصلت إلى عصر الثورة الصناعية الثانية ، واستطاعت في وقت من الأوقات أن تسود العالم وتسيطر

عليه ، حتى وقع عالمنا الإسلامي في قبضته ، لم يكد يخلو بلد من البلاد إلا وقع تحت قبضة الحضارة الغربية .

بعد الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامي كلُّه تقريبا ، إن استثنينا المملكة العربية السعودية واليمن ، نستطيع أن نقول إن العالم الإسلامي كلَّه كان مُستعمَرًا للحضارة الغربية هذه .

موقف المسلمين من الحضارة الغربية :

هذه الحضارة ما موقف الإسلام منها؟ وما موقفنا نحن المسلمين من هذه الحضارة الغربية؟

هناك فئات ثلاث تقف من هذه الحضارة الغربية مواقف متفاوتة :

الفئة الأولى : التابعة للغرب

تأخذ الحضارة الغربية بكلِّ ما فيها ، بحذافيرها ، لا تستثني شيئا منها ، بمادياتها ومعنوياتها ، هكذا دعا إلى ذلك بعض الناس فترة من الفترات ، من النصارى والمسلمين داخل الوطن العربي ، وداخل الوطن الإسلامي . نادى بذلك في مصر سلامة موسى ، ونادى بذلك طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) ، والذي قال فيه بصراحة أنه لا يمكن أن ننهض إلا إذا سرنا سيرة الغربيين ، وأخذنا هذه الحضارة بخيرها وشرها وحلوها ومرها ، وما يُحَب منها وما يُكْرَه ، وما يُحْمَد منها وما يُعَاب[1] .

---

(١) مستقبل الثقافة صـ ٣٩ ، طبعة دار المعرفة ، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

وهذا مبنيٌّ على نظرية تقول : إن الحضارة لا تتجزَّأ ، فإما أن تأخذ الحضارة كلَّها ، وإما أن تتركها كلَّها ، وإذا أخذتَ منها الجانب الماديَّ فقط ، أخذت القشر وتركت اللُّب ، الحضارة لا بدَّ أن تُؤخذ بمادتها ورُوحها ، بفروعها وجذورها . هذه نظرة عند بعض الناس ، ولا شكَّ أنها نظرة خاطئة .

الفئة الثانية : الرافضة للغرب

هناك صنف ثان على عكس هذا ، يرى أن الحضارة الغربية شرٌّ كلُّها ، وينبغي أن نقاطعها ، حتى ما فيها من خير لا قيمة له بجوار ما فيها من شرٍّ ، ولذلك ينبغي أن نجافي هذه الحضارة ، وأن نبتعد عنها ابتعاد السليم من الأجرب ، وهذا كان طبعا في وقت من الأوقات ، في بعض البلاد نادَوا بالعزلة ، كما حدث في اليمن في عهد الأئمة السابقين ، كانوا يقولون يجب أن نفصل ما بيننا وبين الحضارة ، حتى كان عندهم مثل ـ كما حكى لي بعض الإخوة اليمنيين ـ أنهم كانوا يقولون : (الحمار ولا الاستعمار). يعني لا للقطار وللسيارات هذه ، نحن نركب الحمار ولا الاستعمار . هؤلاء نادَوا بالعزلة .

وبعض الناس إلى يومنا هذا ، يظنون أننا يمكن أن نستغني عن الحضارة ، حتى رأيتُ بعض الشباب الذين يعيشون في أمريكا يقولون : لا حاجة لنا بالحضارة . في قلب أمريكا ، يلبسون

الثياب البيضاء القصيرة ، ويجلسون على الأرض ، ولا يأكلون بالملعقة والشوكة . . . إلخ ، ويقولون إنهم بهذا استغنَوا عن الحضارة .

ولكن قلتُ لهم : ألستم تركبون السيارات والقطارات ، وتصعدون في المصاعد ؟ وبعضكم يدرس الميكانيكا والكهرباء . كيف تقولون : إنكم تستغنون عن الحضارة ، وما عاد بالإمكان أن يستغنى عن الحضارة؟ العزلة التي نادى بها بعض الناس يوما ، لم تعد ممكنة .

وهناك بعض الناس في هذا الاتجاه يقولون : نحن لسنا في حاجة إلى الحضارة الغربية ، ويجب أن نرفض الحضارة الغربية ، ولكن من منطلق آخر قاله شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله في محاضرة له يوما قال : إننا لسنا في حاجة إلى الحضارة الغربية . لم يقل بالموقف الوسط ، الموقف الانتقائي ، لنأخذ منها وندع .

قال : نحن لا نأخذ منها شيئا . كيف ؟

قال : لأن الذي يؤخذ من الحضارة الغربية أصله إسلامي ، فلماذا نأخذ من الحضارة الغربية ؟ إذا كان العلم ، أو الإدارة ، أو حسن التنظيم ، أو هذه الأشياء كلُّها معاني إسلامية ، فهي من تراثنا ، وهي عندنا ، ولسنا في حاجة لأن نستوردها .

وعلى هذا الأساس نقول : نحن لسنا في حاجة أبدا إلى الحضارة الغربية ، ولكن في الواقع أن الحضارة الغربية طوَّرت هذه المفاهيم . صحيح أن الإسلام يدعو إلى النظام ، ويدعو إلى العلم ، ويدعو إلى العمل ، وإلى حسن الإدارة والرقابة ، ولكن الغربيين طوَّروا هذه المفاهيم ، وأصبحت لهم مفاهيم محدَّدة ، وفلسفات محدَّدة ، وصور محدَّدة .

عندنا الشورى في الإسلام ، ولكن الشورى عندنا في الإسلام معنى عام : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ** ﴾ (الشورى:٣٨) ، ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ** ﴾ (آل عمران:١٥٩) . ولكن الإسلام لم يرسم صورة معيَّنة للشورى ؛ لأنه لو رسم صورة لألزمنا بها في مختلف العصور ، وعلى مختلف الفئات ، وكان في ذلك تضييق علينا ، ولكن ترك الأمر ليتَّسع لمسايرة العصور ، ومواجهة التطوُّر في مختلف أزمانه وأمكنته .

أما الغربيون فقد طوَّروا الشورى كما قلتُ لكم في صورة الديمقراطية ، وضمانات الديمقراطية ، فأصبح هناك شيء يتَّصل بالشورى ، وهو في نفس الوقت صناعة غربية .

الفئة الثالثة : الأمة الوسط

لهذا نقول : إن الموقف الصحيح من الحضارة الغربية ، أن نأخذ من هذه الحضارة الخير ونَدَع الشرَّ ، أن نأخذ الصواب ونَدَع

الخطأ ، أن نأخذ الحقَّ ونَدَع الباطل . فيكون موقفنا منها موقف الانتقاء والتمييز ، لا نقف موقف العبيد ، هناك أناس نسمِّيهم (عبيد الفكر الغربي) ، و(عبيد الحضارة الغربية) .

بعض الناس قال لي : خفِّف كلمة العبيد ، سمِّهم (تلاميذ الفكر الغربي) ، أو (تلاميذ الحضارة الغربية) .

قلتُ لهم : إن التلميذ قد يناقش أستاذه ، وقد يردُّ عليه ، ولكن هؤلاء موقفهم ليس موقف تلمذة ، بل موقف عبودية .

سمات الحضارة الغربية :

ولذلك ينبغي أن ننظر في هذه المواقف الثلاثة ، ونلاحظ أن مكوِّنات الحضارة الغربية أبرزت على مرِّ العقود التحلُّل والسقوط الخُلُقي ، الذي تراه اليوم أن العفاف والإحصان والطهارة أصبحت معاني مفقودة في المجتمع الغربي ، وتقارير الهيئات الطبية والعلمية منذ سنوات وهي تحذر من هذا الوباء ، وآخر ما رأيناه في هذا الصدد وباء (الإيدز) ، والمسألة لا تقف عند هذا الجانب من الأخلاقيات ، والمسألة كما قال (جارودي) أنه في سنة (١٩٨٢م) خُصِّص للتسليح أكثر من (٦٠٠) مليار دولار ، كلُّ واحد من سكان العالم يصيبه حوالي ما يعادل أربعة أطنان من المتفجِّرات ، أكثر من (٦٠٠) مليار دولار أو أكثر للتسلُّح ، في

الوقت الذي أعلنت فيه الهيئات الدولية أن هناك حوالي (٥٠) مليون ماتوا من المجاعة في أفريقيا وفي آسيا[١] .

١- حضارة مادية :

الآن غلبت على الحضارة الغربية الناحية المادية فقط ، فغايتهم أن يكسبوا أو يربحوا ولو على جماجم الآخرين ، ظهرت الثورة الصناعية ، والتكنولوجية ، وغيرها ، ولكن البعض سمَّاها (ثورات الدمار) ، التي تقول : أنتجوا أكثر لكي تستهلكوا أكثر . يعني لكي تدور المصانع فقط تُنتِج ، تُنتِج شيئا نافعا أو شيئا ضارًا ليس مهمًّا ، المهم أن تُنتِج ، وأن يربح الرأسماليون وغيرهم ، وقد ينتجون ما يضرُّ بالناس ، ويصدِّرون إلينا من الأشياء ما يقتل الناس .

كتب أحد الأدباء في الخمسينيات إلى أحد المرشحين لرئاسة أمريكا : آفة أمريكا أن عندها أشياء كثيرة ، وليس عندها رسالة روحية ، إننا انتصرنا على الطبيعة ، ولم ننتصر على أنفسنا .

٢- السقوط الخُلُقي :

الحضارة الغربية أفرزت هذا السقوط الخُلُقي ، أفرزت الجمود العاطفي ، والتفسخ الأسري ، وقرأتُ منذ سنوات تقريرا بريطانيا

---

(١) لماذا أسلمت؟ نصف قرن من البحث عن الحقيقة ، صـ ٨٨ . روجيه جارودي . دراسة أعدّها الأستاذ : محمد عثمان الخشت ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

أن (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف طفل باعهم آباؤهم وأمهاتهم ، بعضهم قبل أن يولدوا ، في أثناء الحمل ، لكي تشتري الأسرة ثلاجة أو تلفزيونا أو بيتا صغيرا أو نحو ذلك ، تتفق الأسرة على مَن يشتري هذا الطفل ، مَن يأخذه ليتبنَّاه ، ويرضى الأب والأم أن يبيع طفله قبل أن يولد ، وبعضهم يبيع طفله بعد أن يولد بشهر أو عشرة أشهر ، مقابل هذه الأشياء الكمالية . لو كانت أشياء ضرورية قد نقول : مضطرون . كم من الناس يعيشون من غير تلفزيون ، إنما ما أغلى المبيع وأرخص العوض .

٣- التفكك الأسري :

حدثني بعض الإخوة ممَّن يعيشون في أمريكا : أن امرأة عجوزا كانت تعيش في شقَّتها وحدها ، وفي بعض الأيام افتقدها الجيران ، ولكن النزعة المادية الغربية لم تدفع أحدا ليقرع عليها الباب ، إلا أنه بعد مدَّة أحسُّوا برائحة منتنة تنبعث من داخل هذه الشقة ، فأبلغوا الشرطة ، وجاءت ودخلت البيت ، فوجدت المرأة قد ماتت من عدَّة أيام ، ماتت دون أن يشهد موتها أحد . لعلها كانت في حاجة إلى إغاثة ، أو في حاجة لشربة ماء ، ولما بحثوا عن أسرتها وجدوا أن لها أبناء وبنات وأحفادا ، ولكن كل واحد مشغول عنها .

في الحضارة المادية كلُّ واحد مشغول بنفسه ، مجرَّد ما يبلغ الفتى أو الفتاة يذهب كلٌّ إلى حال سبيله ، على حلِّ شعره كما يقولون ، ولا يكادون يعرفون آباءهم أو أمهاتهم إلا يوما في السنة ، وهذا ما اضطرَّهم إلى أن يجعلوا يوما للأم ، ما يسمُّونه بعيد الأم ، أو يوما للأب ، أو نحو ذلك ، فهو مجتمع مفكَّك الأسرة تماما .

سر اقتناء الغربيين للكلاب :

سُئل أحد المسئولين في جمعية رعاية الحيوان في باريس : ما سرُّ اقتناء الناس الكلاب؟ يوجد حوالي سبعة ملايين كلب في فرنسا ، كثيرا ما يرى الناس الشخص وكلبه في المطعم يأخذان طاولة ، هو والكلب ، لم هذا؟ قال : إن الناس في حاجة إلى أن يُحِبُّوا وأن يُحَبُّوا ، فلما جفَّت منابع العواطف الإنسانية ، بحث الناس عن هذه المخلوقات الأليفة ، هذا الكلب فيه ود ووفاء ، ولا يغدر كما يغدر الأصحاب ، ولا يترك صاحبه كما يتركه أولاده وبناته ، فلذلك يتَّخذ الناس الكلاب ، وخصوصا في حالة الشيخوخة ، فالشيخوخة موحشة جدًّا في هذه البلاد .

هذا هو المجتمع الغربي ، هل الذين يريدون أن نأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرِّها ، يريدوننا أن نأخذ هذا ، نأخذ السقوط الخلقي ؟ نأخذ الإغراق المادي ؟ نأخذ التفكك الأسري ؟ والجمود العاطفي ؟

٤- القلق النفسي :

نأخذ القلق؟ القلق المرضي الذي أصبح سمة عامة ، ليس قلقا على مصير الناس ، ليس قلقا من أجل انتصار الخير ، أو من أجل مقاومة الشرِّ ، ولكن قلق مرضي ، ليس هناك أمن نفسي ، هناك أسئلة تحير الإنسان ، لا يجد إجابة عنها . هذا سرُّ ما نراه في داخل الحضارة الأوربية من تمرُّد من أبنائها على الحضارة نفسها ، ما نسمع عنه وما نقرؤه من انتحار ، وفقدان الهوية ، وما نراه من (الخنافس) و(الهيبيز) . هؤلاء في الحقيقة هم إفراز الحضارة الغربية ، هم ثورة على الحضارة الآلية الصناعية ، التي لم تشبع نهمهم الروحي ، ولم تملأ فراغهم العقائدي ، لم تجِب عن أسئلتهم الحائرة ، من أين ، وإلى أين ، ولِمَ ؟ الأسئلة التي يحتاج الإنسان إلى الإجابة عنها ، ولا يمكن أن يجد في حضارة مادية إجابة عنها ، إلا في دين صحيح . ولذلك هذا القلق أيضا من سمات هذه الحضارة الغربية .

٥- الخوف الجماعي :

كذلك الخوف ، الخوف الجماعي ، الجريمة التي انتشرت في أوربا وأمريكا . فلذلك أنا أعجب من الذين يقولون : نأخذ الحضارة الغربية بحلوها ومرِّها ، وخيرها وشرِّها . كيف يكون هذا ؟ هذا إذا قيل في وقت من الأوقات ، يوم كنا مبهورين

بالحضارة الغربية ، وكنا نحن في الحضيض ، وكانت الحضارة الغربية في الأوج ، وبريقها يخطف الأبصار ، وتراثنا مخبوء .

الآن تغيَّر الموقف ، بدأنا نستردُّ الثقة بأنفسنا ، بدأ تراثنا يظهر ، بدأت حركات إسلامية ، بدأت صحوة إسلامية كبيرة .

الحضارة الغربية في طريقها للانهيار :

وفي نفس الوقت بدأت الحضارة الغربية تنقض نفسها بنفسها ، بدأ المفكرون الغربيون ينقضون الحضارة من داخلها ، مثل (شبنجلر) و (توينبي) و (كولن ولسن) و (ألكسيس كاريل) و (رينيه) . أحدث ما كُتب في نقد الحضارة الغربية كتاب ظهر في السبعينيات تُرجم تحت عنوان (إنسانية الإنسان ، نقد للحضارة الغربية التكنولوجية) ، وإذا استمررنا في هذه التكنولوجيا ستصل بنا إلى الدمار ، نفس التكنولوجيا يجب أن نضع لها حدًّا ؛ لأنها تسير بنا إلى ما لا نريد ، الإنسان صنع الآلة ، ثم أصبح عبدا للآلة ، هذا يذكرني بالإنسان الجاهلي الذي نحت الصنم ، ثم أصبح يعبده بعد ذلك ، الحضارة الغربية أصبح أهلها ينقدونها ، فلم يعد هناك مبرِّر للمقولة التي تقول : يجب أن نأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرِّها .

كذلك لم يعد هناك مجال للمقولة التي تقول : نعتزل الحضارة الغربية . لا يمكننا أن نعتزل ، نحن الآن أصبحنا مختلطين وممتزجين بالحضارة الغربية ، فلا يمكن أن نقول باعتزال

الحضارة الغربية ، وإنما الموقف الصحيح أن ننتقي من الحضارة الغربية ، أن نأخذ منها الطيب ونَدَع الخبيث ، أن نقف موقف الناقد المحلِّل لهذه الحضارة الغربية ، ففيها جوانب جيدة ، وفيها جوانب رديئة ، نأخذ الجيد ونَدَع الرديء ، لا حرج علينا أن نقتبس من الحضارة الغربية الخير .

الحكمة ضالة المؤمن وهو أحق بها :

الذين يظنون أن الإسلام يضيق ذرعا بالأخذ من الغير ، نقول لهم : لا ، فـ« الحكمة ضالَّة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحقُّ الناس بها »[1] . النبي ﷺ كان يخطب على جذع نخلة ، فاقترح عليه بعض الصحابة أن يعمل له شيء يقف عليه ، أن يصنع له منبرا ، كما تفعل الأمم الأخرى ، فجيء بنجار رومي وصنع له منبرا من ثلاث درجات وكان يخطب عليه ، لا مانع وإن كان النجار روميا[2] .

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧) ، وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩) عن أبي هريرة ، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦) . ولكن معناه صحيح بالإجماع .

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه : أرسل رسول الله ﷺ إلى امرأة من الأنصار : « انظري غلامك النجار ، يعمل لي أعوادا أكلم الناس عليها ». فعمل هذه الثلاث درجات » . رواه البخاري في الجمعة (٩١٧) ، ومسلم في المساجد (٥٤٤) ، عن سهل بن سعد الساعدي .

واقترح عليه سلمان الفارسي ـ في غزوة الخندق ـ أن يحفر خندقا حول المدينة ، ولم يكن هذا من أساليب العرب ، إنما هذا من أساليب الفرس ، ولذلك حينما رآه مشركو قريش وغطفان ، حينما رأوا الخندق قالوا : ما كانت هذه مكيدة لتكيدها العرب[1].

إنما يجب أن نأخذ الأفكار من حيث جاءت ، من أيِّ وعاء خرجت ، نحن ينبغي أن نأخذ خير ما في الحضارة الغربية ، الجوانب الإيجابية التي تحدَّثتُ عنها ، يجب أن نأخذها من الحضارة الغربية ، العلم والتكنولوجيا ، وينبغي أن نضع التكنولوجيا في إطارنا نحن ، لا ينبغي أن ننقل الأشياء نقلا أعمى .

بعض الناس يقلدون أسلوب البناء الأوربي والأمريكي ، لكن البلاد الحارة غير البلاد الباردة ، البلاد التي تعم الغيوم فيها معظم فصول السنة ، غير بلاد الشمس الساطعة المحرقة .

نحن لنا قيم معينة في اطلاع الجار على الجار ، وفي تجاور البيوت بعضها من بعض ، لماذا ننقل الأشياء نقلا حرفيا؟

أهمية الانتقاء والتميُّز :

يجب أن يكون لنا موقف في الانتقاء والتمييز ، نأخذ أفضل ما في الحضارة الغربية ، العلم والتكنولوجيا ، للأسف الحضارة

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام (٢/٢٢٤) .

الغربية وصلت إلى مراحل بعيدة بعيدة ، هم الآن فيما يسمُّونه (عصر الثورة الصناعية الثالثة) ، الأولى هي التي كانت الآلة توفر الجهد البدني للإنسان .

الآن الثورة الصناعية الثانية مهمَّتها : توفير الجهد الذهني للإنسان ، عصر الكمبيوتر ، الآن توجد أجيال جديدة من الكمبيوتر نسخت الأجيال القديمة ، يوجد تقدم بين الدول بعضها وبعض ، مراحل ومراحل ، أين نحن من هذا؟ نحن لم نلحق بعصر الصناعة الأول ، ولا عصر الصناعة الثاني ، نحن لا زلنا نحبو ، نحن أصحاب دين التقدم ، دين العلم ، أمتنا أمة (اقرأ) ، أمة صانعة الحضارة ، للأسف حتى العصر الأول لم نصل إليه .

إلى متى نظل عالة على غيرنا ؟

نظرت فيما حولي من أشياء وأنا في الفندق ، للأسف وجدت كل ما حولي تقريبا من غير صنعنا ، أي شيء من صنعنا؟ أنظر إلى التلفزيون ، إلى التليفون ، إلى السرير الذي أنام عليه ، إلى الفراش ، إلى المكتب ، إلى اللوحات ، أربعين مفردة من المفردات ، لم أجد فيها شيئا من صنعنا .

ما هذا؟ إلى متى نظل هكذا عبئا وعالة على غيرنا ؟ نحن لا في الزراعة تقدَّمنا ، ولا في الصناعة تقدَّمنا ، يقولون : إننا في العالم العربي والعالم الإسلامي بلاد زراعية . وللأسف حتى

الزراعة ، قوت يومنا نحن نعتمد فيه على غيرنا ، معظم البلاد الإسلامية لو لم تستورد الغذاء والقوت لماتت من الجوع ، يعني البلاد تعتمد على أكثر من خمسين بالمائة (٥٠٪) على الاستيراد ، استيراد الغذاء والقوت ، لِمَ هذا؟ الدين الذي جعل الزراعة عبادة ، فقد قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة»[(١)].

وقال ﷺ : « إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[(٢)].

انظروا إلى تقديس العمل إلى أيٍّ حدٍّ ، ولو لم يأكل من ورائها أحد ، إنما هو تكريم العمل لذات العمل ، ومع هذا نحن لم نزرع ، تركنا ـ كما قال الدكتور طلبة من أيام ـ الصحراء تزحف على الزراعة ، والأرض الزراعية نأخذها للبناء ، ونجرفها . في الزراعة نعتمد على غيرنا ، في الصناعة نعتمد على غيرنا .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠) ، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣) ، عن أنس .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٢٩٨١) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، ورواه البخاري في الأدب المفرد باب إصلاح المنازل (٤٧٩) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩) ، عن أنس .

كلمة كنتُ أقولها دائما ، قلتُ : أمة سورة الحديد لم تتعلَّم صناعة الحديد ، القرآن يقول في سورة الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد:٢٥) ، ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ : إشارة إلى الصناعات الحربية ، ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ : إشارة إلى الصناعات المدنية . ونحن لا أحسنَّا الصناعات الحربية ، ولا أحسنَّا الصناعات المدنية ، نحن عالة على غيرنا ، كيف نقاتل وسلاحنا بيد غيرنا ، ولو كفَّ يده عنا ما استطعنا أن نفعل شيئا .

العودة إلى رُوح الإسلام :

أين نحن؟ نحن في حاجة إلى أن نعتمد على أنفسنا بعد الله سبحانه وتعالى ، إذا كنا نريد أن نعيش فلا بدَّ أن نبدأ حياة جديدة ، ومرحلة جديدة ، نفكِّر فيها بطاقات إنسانيتنا ، بالإيمان الحقيقي ، الإيمان الذي يصنع الإنسان ، ويصنع الروائع ، نحن لا نستطيع بالطاقة العادية أن نعوِّض ما فاتنا ، بيننا وبين القوم مراحل ومراحل ، ومُضي الزمن لا يقرِّب المسافة ، بالعكس مُضي الزمن يزيد المسافة بُعدا ، لأننا إذا كنا نركب الحصان ، فهم يركبون السيارة ، فإذا وصلنا نحن إلى السيارة كانوا هم يركبون الطائرة ، فإذا وصلنا نحن إلى الطائرة وجدناهم يركبون الصاروخ .

المسألة تحتاج إلى أن نعوِّض هذا بطاقة هائلة ، طاقة روحية تجعل الإنسان يعمل بأضعاف طاقته العادية ، وهذا ما أشار إليه القرآن : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾ (الأنفال:٦٥) ، الواحد من المؤمنين يعمل أضعاف الطاقة البشرية ، إذا وجد عنده الصبر ، والصبر من تمام الإيمان ، الإيمان هو الذي يصنع العجائب ، ولذلك ينبغي أن تعتمد أمتنا على الإيمان ؛ لتنفخ في شُعَبها رُوح الإيمان ، ينبغي أن نعود إلى مفجر الطاقات الحقيقي وهو الإسلام .

يوم تعود هذه الأمة إلى الإسلام ستصنع العجائب ، نحن نأخذ من الحضارة الغربية خير ما فيها ، ولكن لا يكفي إذا لم تتميَّز شخصيتنا ، إذا لم تتميَّز هذه الشخصية من الشخصية الغربية المادية المتحلِّلة ، بشخصية مؤمنة مسلمة ، ترجع إلى الإسلام ، إلى كتاب الله ، وإلى سُنة رسول الله ، وتقتدي برسول الله وبسلف هذه الأمة .

لا أريد أن نتقوقع على الماضي ، لا ، إنما نأخذ من الماضي العبرة والعظة والقدوة ، وننظر إلى الحاضر لنأخذ خير ما فيه ، وننطلق إلى الأمام ، بذلك نستطيع أن نُحكِّم ديننا ، وأن ننهض بأمتنا ، بغير هذا لن يكون لنا مكان ، سيرفضنا التاريخ إذا لم نستطع أن نقف الموقف الحقَّ .

البضائع لا الشرائع :

الحضارة الغربية فيها جوانب طيِّبة ، ممكن أن نأخذ خير ما فيها ، ولا نقف موقف الرفض المطلق ، ولا نقف موقف التعصُّب الأعمى ، أنا أقول : نستطيع أن نستفيد حتى من أمثال : (فرويد) و(دور كايم) و(ماركس) ؛ لأن هؤلاء وإن كانت نظريَّاتهم الأساسية قائمة على باطل ، لكن ليس كلُّ ما قالوه باطلا ، هناك بعض تفسيراتهم ، وبعض تحليلاتهم فيها كثير من الصواب والحقائق ، فينبغي أن نستفيد من أيِّ إنسان ، النبي ﷺ قال : « أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد : ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل »[1] . وكان لبيد قد قال ذلك في الجاهلية ، ولم يمنع ذلك أن نستفيد مما قاله في الجاهلية .

نحن نأخذ الحكمة من الحضارة الغربية ، ونستفيد من كلِّ المدارس ، ولكن ينبغي أن نفرِّق تفريقا واضحا ، نحن نأخذ البضائع ، ولا نأخذ الشرائع ، نأخذ التنظيمات والمعلومات ولا نأخذ القيم والفلسفات ، نأخذ التكنولوجيات ولا نأخذ الأيديولوجيات .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في المناقب (٣٨٤١) ، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦) ، عن أبي هريرة .

ينبغي أن نفرِّق تماما بين ما نأخذه وما لا نأخذه ، ثم بعد ذلك نعتمد على مركز قوَّتنا الحقيقي ، على الإسلام العظيم الذي أكرمنا الله تعالى به ، ويوم نعود إلى هذا الإسلام ، نتمسَّك به ونحتكم إليه ، فسيمدُّنا برُوح القوَّة وقوَّة الرُّوح ، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢، ٣٣) .

وآخر دعوانا أن الحمد ربِّ العالمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإسلام والحضارة الغربية	٣
الحضارة المعاصرة حضارة غربية	٤
خصائص الحضارة الإسلامية	٤
حضارة العلم والإيمان	٦
مدن أوربا لم تكن تعرف النظافة	٧
مصدر الأمراض عند الأوربيين	٨
موقف الكنيسة من التفكير العلمي	٩
الجانب المادي في الحضارة الغربية	١٠
الحضارة الغربية تقوم على الصراع	١٢
صراع الإنسان مع الطبيعة	١٤
صراع الإنسان مع الإله	١٥
جوانب القوة في الحضارة الغربية	١٦
١- احترام العقل والعلم	١٧
٢- احترام العمل	١٨
٣- احترام إنسانية الإنسان	١٨
٤- تنظيم أمور الحكم	١٩

موقف المسلمين من الحضارة الغربية..... ٢٠
الفئة الأولى : التابعة للغرب..... ٢٠
الفئة الثانية : الرافضة للغرب..... ٢١
الفئة الثالثة : الأمة الوسط..... ٢٣
سمات الحضارة الغربية..... ٢٤
١- حضارة مادية..... ٢٥
٢- السقوط الخُلُقي..... ٢٥
٣- التفكك الأسري..... ٢٦
سر اقتناء الغربيين للكلاب..... ٢٧
٤- القلق النفسي..... ٢٨
٥- الخوف الجماعي..... ٢٨
الحضارة الغربية في طريقها للانهيار..... ٢٩
الحكمة ضالة المؤمن وهو أحق بها..... ٣٠
أهمية الانتقاء والتميُّز..... ٣١
إلى متى نظل عالة على غيرنا ؟ ٣٢
العودة إلى رُوح الإسلام..... ٣٤
البضائع لا الشرائع..... ٣٦
الفهرس..... ٣٩